السيفنَّة

١ تمهيد

في اللغة العربية الفاظ مبهمة لا تحصى لاسيما ما يتعلق منها بعلم المواليد (اي الجماد والنبات والحيوان) ونحن في حاجة الى حلها لكن من اين لنا علم الغيب او علم حل المطلسمات او علم حلّ الرموز ؟ — على ان اصحاب العلوم المتفرغين لهذه الفروع قد يبلغون ما طالما تتوق اليهِ الانفس . واهمال حلها ضرب من العار علينا — لو جاز لنا هذا التعبير . وكنت دائماً ممن اوقف اغلب عمره في سبيل هذه المتعة حبًّا للغة وعشقاً لها . فاهتديت الى كثير من تلك الحقائق التي اعتبر كل واحدة منها بمنزلة العثور على كنز جديد لانني ممن لا يحتمل ان تُرمى لغتهُ بنقص او شائبة . ومما حققت معرفتهُ هو السيفنَّة . فما هي السيفنَّة ؟

٢ السيفنَّة عند اللغويين

سيفنَّةٌ على ما في القاموس (وقد ذكرها بدون اداة التعريف) وضبطها بكسر السين وفتح الفاء والنون المشدَّدة : طائر بمصر لا يقع على شجرة الاَّ اكل جميع ورقها . ثم زاد على هذا البيان صاحب تاج العروس بقولهِ : كذا رواهُ ابن الاثير . ويقال لهُ سيبنَّة بالباء ايضاً كما تقدم في سبن (وقد ذكرها هناك بالباء) قال الحافظ : والحق انهُ حرف بين حرفين . انتهى . اما صاحب لسان العرب فانهُ لم يذكر عنهُ شيئاً

واول شيء نلاحظهُ في كلام اللغويين انهم قالوا : سيفنة : طائر .... وكان يجب ان يقال هكذا : السيفن (باداة التعريف) طير (جمع طائر) والواحد منها بهاء (اي السيفنة) ويجب ان يعبر هذا التعبير لان السيفنة اسم واحد لذلك الطائر ولا يمكن ان يبتدأ بالنكرة فمن الواجب ان يعرف . كما انك لا تستطيع ان تقول مثلاً : حمامة : طائر .... بل الحمامة . ومن الغريب اننا لم نجد احداً خطَّأ القاموس والتاج على هذا التعبير المغلوط . فجلَّ من لا عيب فيهِ

لكن ما هذا الطائر الذي يكون في مصر ويفعل تلك الافعال الشنيعة ؟ — قصر او ديار مصر معلومة اليوم وقد وقف العلماء على ما فيها من المواليد ولم يذكروا لنا طائراً بتلك الصفات المشؤومة . وقد ذهبنا مرتين الى الاقطار المصرية

وسألنا بعضاً من خاصتها وعامتها فلم يفيدونا شيئاً وانكروا وجود ذلك الطائر في بلادهم . فكيف اذاً نجمع بين كلام الاقدمين والمحدثين ؟ وقد فتشنا في كتب علماء الفرنجة عن اسم طائر يأتي تلك الفضائل فلم نهتد الى واحد يأتي تلك المساوىء . ثم سألنا اهل العلم المتفرغين لتلك الابحاث فانكروا وجود طائر بتلك الصفات المذمومة . وما زلنا نسأل ونبحث وننقر مدة نحو اربعين سنة حتى كدنا نيأس من تحقيق امنيتنا الى ان اهتدينا الى ضالتنا نهائياً

٣ ما المراد بالطائر عند العرب

واول شيء يجب على العالم ان يعرفهُ قبل ان يبحث في حقيقة معنى اللفظة هو: ما يريد العرب بالطائر. فان كبار لغويهم لم يعرّفوهُ معرفة كافية شافية والذي جاء في دواوينهم . الطيران (بدون تعريف الطائر) فقالوا : « هو حركة ذي الجناح في الهواء بجناحيهِ » فيكون الطائر في عرفهم : كل ذي جناح . فاذا كان الامر كذلك فمعناهُ واسع يقابلهُ حينئذٍ في لغة الافرنج الفاظ متعددة . لا كلمة واحدة كما يذهب الوهم اليهِ . ولهذا اخطأ جميع الافرنج الذين نقلوا دواوين اللغة العربية بترجمة كلمة طائر هنا بكلمة avis اللاتينية كما فعل فريتاك ومن نقل عنهُ . وبكلمة oiseau الفرنسوية كما فعل كزميرسكي ومن اختصر كتابهُ . وبكلمة bird الانكليزية كما نقلها لين ومن شايعهُ . وكذلك اخطأ جميع اصحاب الدواوين العربية الذين نقلوا كلام الاقدمين بدون ان يوضحوهُ ظانين ان كلمة طائر في السفينة هو هذا الطائر الذي يكون جناحاهُ من الريش المعهود وليس الامر كذلك

فان كلمة طائر جاءت عند العرب بمعانٍ كثيرة حتى انهم اطلقوها على ما يطير من الذباب والنحل والجراد وغيرها. فانهم مثلاً عرفوا اليعسوب وهو عند الافرنج Libellule بقولهم : طائر اصغر من الجرادة . فاعتبروا الجرادة طائراً واعتبروا اليعسوب طائراً ايضاً فشبهوا طائراً بطائر . اما الافرنج فلا يطلقون اسم الطائر اي oiseau على ذلك. فيستنتج من هذا ان الطائر عند العرب كل ما يطير وهكذا فعل ابن سيدة في المخصص فانهُ اطلق صغار الطير على الخرق والخطاف والبغاث كما اطلقها على الجنادب واليعاسيب والنحل والجراد والذباب وعدّها من صغار الطير .وقد عرّف العرب اليراعة بانها طائر صغير ان طار بالنهار كان كبعض الطير وان طار بالليل كان كأنهُ شهاب قذف او مصباح يطير (الحيوان للجاحظ ٤ : ٨٥٥)

وقد تجاوز العرب كل حدّ في استعمال كلة طائر فانهم اطلقوها على ما يجول في الهواء ولو لم يكن ذا جناحين . فانهم اطلقوا اللفظة على ما سمّاه الافرنج feu de St. Elme وبالانكليزية corposant وعلى ما سمّاه ايضاً الفرنسيون fen-follet والانكليز will-o-the wisp. اما دليلي على ذلك فهو ما جاء في كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس الدين الدمشقي في ص ١٥٨ من كتابهِ المطبوع في بطرسبرج وهذا نصهُ : « وبحر هذه الجزيرة (اي جزيرة اصرار في بحر الهند) طائر النور : وهو طائر بحري بري وسيما اذا طار على المركب أو قارَبَهُ » اه . قلتُ فالبحري هو المسمى عند الافرنج باسم الاول والبري هو المسمى بالاسم الثاني على ما ذكرناهُ فوق هذا . ولم يجد حقيقة هذا الطائر احد قبلي . وقد عرّب المحدثون اللفظين المذكورين بدون ان يهتدوا الى الحقيقة على ان العرب سمّوا البحريّ منهما باسم طائر النور واما الارضيّ فسمّوه « الارقان » وقد بحثنا على ذلك في غير هذه المجلة . وسمّى البعض الآخر البحريَّ منهُ « بالبهمن » والكلام في ذلك يطول

٤ التحقيق العلمي لما يأكل اوراق الاشجار

لقد رأينا ان الطائر عند العرب قد يكون بغير المعنى المألوف عندنا اليوم فلننظر الآن ما الذي يأكل الشجر . اما الذي يأكل اوراق الشجر او اثمارها فلا يكون الاَّ من دودة الربيع المعروفة عند المحققين بالسُرفة وعند الفرنجة باسم chenille ولهذا أطلقوا اسم آكل الورق phyllophages عليها وعلى الجراد وعلى ضرب من الخنافس . فيحتمل ان تكون السيفنة ضرباً من الخنافس . الاَّ ان الذي يحملنا على ان لا نظن انها من جنس الخنافس او الجعافس والعجافس (على ما يقول العرب الاقدمون) هو وصف العرب ان السيفنة (وهي الواحدة من السيفن) لا تقع على شجرة الاَّ اكلت جميع ورقها . مما يدل على ان الواحدة منها تفتك بالشجرة فتكاً ذريعاً ولا تطير عنها الاَّ بعد ان تكون قد نزعت منها اوراقها . وهذا الوصف لا يصدق الاَّ على نوع من الجراد المعروف عند العلماء باسم acridium migratorium وعند الفرنسويين acridien voyageur فهو لا يسقط على شجرة الاَّ عرّاها من ثوبها وجرّدها تجريداً . ووصفهُ اشهر من ان يذكر فيجب بعد هذا التحقيق ان يقول اصحاب المعاجم في تعريف السيفنة : طائر

على خلق الجراد او ضرب من الجراد يكون في مصر وغيرها من البلاد لا يقع على شجرة الا اكل جميع ورقها . حينئذ يفهم ان هذا الطائر موجود وليس خرافياً كما توهمهُ بعضهم اخذاً لكلام العرب على ظواهره

٥ تعريف العلماء للسيفنة ووصفها أو تحديتها

التعريف اللغوي وان كان حسناً فهو لا يفيد فائدة التعريف العلمي فان هذا يكون كافياً وافياً شافياً ولهذا يحسن باصحاب الدواوين اللغوية الحديثة ان يتبعوا العلماء العصريين في تعاريفهم ويطعموا ابناءنا طعاماً جديداً لا ان يطعموهم طعاماً عتيقاً قد اكل عليهِ الدهر نفسهُ وشرب . وعليهِ يجب علينا ان نعرّف اليوم السيفنة او قل السيفن هكذا : « ضرب من الحشرات من رتبة المستقيمات الاجنحة من الفصيلة المسماة باسمها اي السيفنية » . ودونك وصفها :

راسها بيضيّ مركوز طرفهُ الخلفي في بختقها . وعيناها لوزيتان بارزتان وقرناها اسطوانيان خيطيان ومشفراها كثيرا الاسنان الحادة وجناحاها يتجاوزان غالباً بطنها . وهي سريعة الحركة والتنقل وهي لا تمشي حسناً لكنها تقفز قفزاً بسرعة غريبة وهي كثيرة الاضرار للزروع والاشجار وتظعن من ديار الى ديار ومن ذلك اسمها عند الافرنج السيفنة الرحالة . وتعرف من الخارج بجسمها الضارب الى الخضرة وجناحيها الادكنين وفيها نكت ملحاء وساقاها ورديا اللون وطول جناحيها اذا فتحتهما اكثر من ١٠ سنتيمترات

٦ اضرارها

اما اضرارها فحدث عن البحر ولا حرج . فان هذا الطويئر الحقير هو الذي يتلف كل سنة بعض ديار شمالي افريقية . وقد اشتهر فتك السيفنة بالجزائر في سنة ١٨٤٥ و١٨٦٦ و١٨٧٣ وكانت جرائد ذلك العهد ذكرت ما دمرتهُ من المزارع فكان شيئاً هائل القدر . واحسن تصوير لمفاسدها هو ما كتبهُ العلامة كنكل دركولائس Kunckel d'Herculais في كتابهِ الجراد والسيفن وغزواتهما Les Sauterelles, les acridium et leurs invasions ص ١٥ اذ يقول :

« السيفن كسائر ذوات القفرات آكلة البقول مبنية الخلق بناء يمكنها من تحويل انسجة الانبتة انسجة حيوانية . الا ان السيفن يهجم على الانبتة النافعة لابن آدم كل النفع ليتخذ لنفسهِ المواد اللازمة لنموهِ وحياتهِ . واهم طعامهِ ما

يضرم منها على ساق من الفصيلة النجيلية. ولو كانت هذه الدويبة في حالتها الوحشية لما ضرّ نهمها الاّ نفسه لكن لما كان الانسان يعرض لها رقعاً واسعة المسافة وكلها نباتات لذيذة لها كالحنطة والشعير والخرطال والجودر ونحوها فترى نفسها من سعد السعداء لحصد تلك المزروعات على نفقتها ولمنفعتها ولا تشمئز من ان تأكل الحنطة وهي خضراء . الاّ ان الجوع هو اعظم وازع لها فاذا لم يقع لها ما يطيب لشهاها فانها تتعرض للنباتات المزروعة مهما كان جنسها حتى انها لتأكل البراعم والاوراق وعناقيد العنب والعساليج والسوق ومهما يقع تحت سنها اذا ما الجأها الجوع الى ذلك . واذا اشتدّ بها الطوى اكلت ما لا تلتفت اليه في ايام اليسر فهي تأكل الدفلى والضرو والنخل والدوم وغيرها . واذا أشفت على الهلاك جوعاً تسفن (ومن ذلك اسمها اي تقشر) لحاء الشجر بل رئي منها ما اكل ستور المراكب حينما حصر في بيوت مغطّاة باستار ثخينة ومنها ما قرض الثياب والخرق بل الكاشد نفسهُ . واذا مات منها واحدة نهشت جثتها رفيقاتها او اترابها . اه .

فبهذا الوصف كافٍ ليصور لك أعمال السيفن الفظيعة

٧ اوهام الكتاب

بيّنا في ما تقدم بسطةً اغلاط اللغويين في ما اوردوهُ بصدد تعريف هذه الحشرة الضارة . لكننا وجدنا في كتاب الانساب للسمعاني المطبوع طبعاً على الحجر على نفقة شركة جب ما هذا نقلهُ بحرفهِ : « ابو اسحق ابرهيم بن علي بن دينار الهمذاني (بالذال المعجمة والذي ورد في نسخ القاموس وفي التاج بالدال المهملة وهو خطأ) المعروف بسيفنة . وانما قيل لهُ سيفنة (كذا ورد مرة بالنون واخرى بالباء ليشير الى جواز الحرفين) باسم طائر يقع على الشجر ويقلع الاوراق بمنقاره حتى لا يترك عليها ورقة واحدة فلقب ابرهيم ابن دينار بذلك لانهُ اذا ظفر بحديث لا يفارقهُ حتى يسمع منهُ جميع ما عندهُ ويكتبهُ ولنا في حرصهِ حكاية عجيبة مات يوم الاحد آخر يوم من شعبان سنة ٢٨١ . انتهى

قولهُ : « يقلع الاوراق منها بمنقارهِ » يوهم انّ للطائر منقاراً او ان هذا الطائر هو طائر حقيقي من طير ذوات الاجنحة اجنحة الريش . الاّ انا نجد هذا الكلام من زيادة الناسخ والدليل ان القزويني نقل كلام ابن السمعاني ولم يذكر ما جاء هنا بل قال : « قال ابن السمعاني في الانساب انهُ طائر بمصر يلقي اوراق

الاشجار عنها حتى لا يبقي منها شيئاً يشبه به ابو اسحق » فالزيادة واضحة. ومهما يكن من امرها فاصول العربية تجيز هذا التعبير ايضاً : لان المنقار مقدم الشيء فانهم يقولون مثلاً منقار الخف على التشبيه فلا مانع من القول ان هذا الجراد يأكل الاوراق بمنقاره اي يتناولها بفيه ليأكلها

٨ الخلاصة

نحن في حاجة الى تحقيق ما عندنا من الالفاظ المبهمة لعدة امور منها : ١ لمعرفة ما كتب عنها اجدادنا العرب والوقوف على ابحاثهم وافكارهم واقوالهم . ٢ تخلصاً من استعمال الالفاظ الاعجمية التي يكثر فيها ثقل الموازين وغرابة الصيغ وعجمة الحروف . ٣ مباهاة بلغتنا وبانها لا تحتاج الى الالفاظ الدخيلة كما تحتاج اليها سائر اللغات . ٤ تحقيقاً لامر جليل وهو ان اجدادنا الاقدمين كانوا قد عنوا بالبحث عن اشياء فظن انهم لم يعنوا بها . ٥ الانقطاع عن وصمهم بالجهل المطبق وبالقول انهم لم يعرفوا الا الامور التي تتعلق بالمعيشيات والحياة البدوية

على اننا لا يحق لنا ان نتمسك بكل ما قالوه تمسكاً اعمى بدون ان نركن الى تقدم العلوم في هذه الاعصر المتأخرة . فان العرب مثلاً لم يعتبروا النعام طائراً بل حيواناً من حيوانات البر كالابل مثلاً . فقد قال الجاحظ : يقال لقدم البعير خف والجمع خفاف ومنسم والجمع مناسم وكذلك يقال في النعامة ويقال لانثى النعام قلوص كما يقال ذلك في الابل وانما قالوا ذلك لما رأوا فيها من شبه الابل . وقال ايضاً (في ١ : ١٥ من كتابه في الحيوان) والجراد طير والمثل المضروب به (اي اطير من جرادة) اشهر ... وليس بازيش والقوادم والاباهر والخوافي يسمى (الطائر) طائراً ولا بعدمه ليسقط ذلك عنه . الا ترى ان الخفاش والوطواط من الطير وان كانا امرطين ليس لهما ريش ولا زغب ولا شكير ولا قصب وهما مشهوران بالحمل والولادة وبالرضاع وبظهور حجم الآذان وبكثرة الاسنان ؟ والنعامة ذات ريش ومنقار وبيض وجناحين وليست من الطير ؟ انتهى . فان المحدثين يعتبرون النعام من الطير والخفاش والوطواط من الحيوانات والجراد من الحشرات . فالقول بما قال به العرب غير صحيح والعمدة اليوم ما حققهُ ابناء البحث والتدقيق . وعليهِ يقال ان السفنة من الحشرات لا من الطير وبهذا القدر كفاية

امكح